

الثورات الكبرى

الثورة حركة عنيفة تنور في بركان القلب البشري المصفد بقيود العادات الضارة عند ما تراهي له الحقيقة المنيرة المنمعة وتتأجج نيرانها في الدماغ المفكر الذي يأتي ان يقيد بسلاسل الترهات والاوهام . وتهب طاصفتها في النفس الالية التي تؤثر الموت على الدال والخنوع

الثورة هي روح التمرد على النظام الاجتماعي الفاسد الذي يحسب السارق العتي قوياً شرفاً ومحترمة والممس الفقير دينياً محتالاً ومحتقرة وبشكل به ثم يقول ان ذلك جدير بالاكرام والاحترام وهذا مستحق لتقصاص الصارم الذي تقضي به العدالة بل الاستبداد . والغاية القصوى التي تجاهد الثورة في سبيلها هي تقوم عوج الاجتماع واصلاح فساد الممران

والثورات الكبرى التي شهدتها التاريخ قاترت في مجراه تأثيراً واسعاً ثلاث —
الثورة الفكرية والثورة السياسية والثورة الاجتماعية

الثورة الفكرية

ماكدت تزعزع دعام الامبراطورية الرومانية امام هجمات قبائل البربر حتى هم العالم المتسدين ظلمة حالكة خيست على عقول ابناء القرون الوسطى . فسمي ذلك العصر بالقرون المظلمة . خبط الناس في ديجور من الخرافات والاوهام خبط عشواء فلم يجسر احد ان يقول خلاف ما نص عليه افلاطون او صرح به ارسطو . وكان ليلاً حالكا لم ينزع طوره الا عندما قام روجر باكون رسول العلم الحديث في القرن الثالث عشر وصرح ان ارسطو على واسع اطلاعه واختباره ودقة علمه وسعة نظره انما عرس زرة العلم التي ستثمر شجرة كبيرة وتمتد منها الفروع الى كل الانحاء فتثمر ثمراً شبيهاً للنظر نافماً للنفس . ولذلك نصح لمعاصريه ان ينصرفوا عن البحث في اقوال الفلاسفة الاقدمين الى درس احوال الاشياء التي لها علاقة كلية بحياتهم اليومية واثار عليهم ان يستعملوا الاسلوب العلمي للوصول الى الحقائق المجرّدة — ذلك الاسلوب المبني على الملاحظة والقياس والاستنتاج .

وبتصرّحه هذا وببصيحته أثار ثورة كبرى قلبت السلم رأساً على عقب ولا سيما في الامور الدينية وكان نجاحه باهراً

بدأت الحركة الفكرية المدعومة بالتجدد او النهضة (١) في ايطاليا في اواخر القرن الثالث عشر للبلاد فقلبت طرق البحث والاكتشاف وتغيرت اساليب التعليم والتدريس فنشأ داني واسكر العالم بشعره ورفائيل فادمشي المتأخرين بصورة وانجلو فخره بنقشه وكوبرنيكس وغليليو غيرا انقلاباً باكتشافاتها واصبحاً بذلك انبياء العلوم الطبيعية الحديثة المبينة على الحساب الرياضي الدقيق. وخاص كل من كولينوس وماركو بولو عباب اليم فكشفنا القناع عن بلدان جديدة غنية بكنوزها المدفونة وثورتها المتطورة

لهم مات هؤلاء الابطال لكن ارواحهم بقيت ترف في فضاء المدارس والجامعات وماعد التعليم فبعثت في نفوس التلامذة حب الاكتشاف والاختراع فبرز فوتبرج آلة الطباعة التي تفوق بقية الاختراعات في نفعها وكان من تأثيرها انتشار العلوم والننون والمعارف بواسطة الكتب والصحف . واكتشف نيوتن قوانين الحركة والجاذبية ونسبها تنسيقاً علياً فصارت الاساس لكثير من العلوم العصرية . واخترع واط وستيفنسن الآلة البخارية ففتحت الثورة الصناعية الكبرى التي بدأت في انكلترا في اواسط القرن الثامن عشر وكانت الدافع الاكبر لاختراع الآلات الصناعية العديدة والاساليب الزراعية الحديثة والعلوم الهندسية الكبيرة النفع

الثورة السياسية

تدرج الانسان في ممارج الرقي فبعد ان كان وحيداً فريداً يقطن الغابات وماوي الى الكهوف وجد انه خير له ان يتعاون مع انسان آخر على درء الاخطار وتذليل الصعاب والسعي معاً لتسهيل اسباب الازتاق . فنتج عن هذا التعاون والتحاك وانكاتف المجتمع القديم واساسة العلاقات الزوجية والصلات الوالدية فكان لكل مجتمع شخص يجلونه ومحترموه يطيعونه بما يأمر ويعملون حسب ما يرئاي

ومر على المدنية قرون طوال وهي تنتقل من طور الى طور وتتقدم من حالة الى حالة افضل منها حتى وصلت الى ما هي عليه الآن من الرفعة وسمو المرتبة عزف المجموع اثناء هذه التقلبات سلطة الوالد والشيخ في القبيلة والعشيرة . وذاق انواع العذاب في عهد الحكومات الاقطاعية وسلطة الاشراف حتى قنط من يؤسه وتمعه في ايام الملكية المطلقة التي كان يدعي اصحابها انهم يحكمون بحق الهي فبكل شعب يابى الضيم ولا ينأى عن الذل ونادى بحرية بني الانسان مساواتهم فكان ذلك النداء كصباح انبعث نوره الى انحاء المعمور فكانت الثورات التي ثلث العروش وقوضت اركان سلطة المستبدين العتاة



عند ما نذكر الثورة الافرنسية ينتصب في مخيلتنا شبح الموت الخيف مخيفاً في شوارع باريس جنة الغرب ويمثل امامنا صورة النطع تقطع عليه اعناق الابرياء وتهدر دماؤهم وترن في آذاننا اصوات البؤساء والتاعسين وتكس لنا صفحات التاريخ صور الجاهيل امام الباستيل تلك المعاقلة وتحضر اساساته وتتركه اثرأ بعد عين . وتهتز اوتار نفوسنا لاصوات الشعب وهو ينادي بالحرية والمساواة والاخاء ثم بين صراخ اليتيم والتاعس ومشاهد الدل والبؤس شاهد شخص الملك لويس السادس عشر وقد علت جبينه صفرة الموت وبدت على وجهه امارات الحيرة والدهشة وانبعثت من عينيه اشعة الخيبة والفشل وتجلت في هيئته الزعب والخوف لان الشعب الثائر جاء يقتص منه لاجل مظالم ابائه واجدادهم وقام يحاكمه عن آثامه واثام اسلافه فأصبح الرجل الضعيف بعد ان كان السيد المطاع ونزلت في قصور آل بوربون القمصة رجال الشعب وابطل الحرية

اذاً ما هو تأثير الثورة الافرنسية اذالم يكن قد حالقها الا الخراب والدمار والقتل والنهب والنوضى ؟ ولماذا هي خالدة في التاريخ . ان وراء الثورة الافرنسية غير القضاة والجرائم

ثار الشعب الافرنسي لان حالته الاجتماعية في اواخر القرن الثامن عشر لم تعد تنطبق على النظام القديم وما ينطوي تحته من ادعاء الملك انه يملك بحق الهي وان افراد الشعب خدمته بل عبيده يجب عليهم ان يطيعوه الطاعة العمياء فضلاً

عما كان في ذلك النظام من عدم تساوية بين طبقات الشعب وامتهان الطبقة العامة
وغضم حقوقها الاجتماعية والسياسية

ان رأس الحكومة يجب ان يجمع بين العزم والحزم وقوة الارادة وسعة
الاطلاع وحسن التدبير وما اشبه من المناقب فاذا لم تجتمع فيه فلا الالاه يرضى
به ملكاً ولا الشعب المستتير يصبر على سياسته الخرقاء

قال كارليل « الطاعة واجبة ولكن لمن يستحق ان يطاع والسلطة ضرورية
ولكن في يد من يقدر ان يستعملها بحكمة . فويل للذي يرفض الطاعة لمن هو
حري بها وويل لمن يطلب السلطة وهو بها غير جدير . اعطني الرجل الذي يهوي
كل الصفات التي يجب ان تجتمع في الحاكم فهو يملك علي بحق الهي »

اثبت الشعب الافرنسي بحركته البركانية ان للشعب القول الفصل في تعيين
رئيس حكومته فاضراً الى كفاءة الانسان ومقدرته الادارية والسياسية لا الى
شرف بيته وكرم عتده

وجدت الحكومة والقاية من وجودها خدمة المجموع بكل الوسائل التي
توصل بها الى زيادة رفاه افراده ورفع مستوى معيشتهم . فالافرنسيون قد اثبتوا
للملوك المتبدين ان الملك ليس تجارة خصوصية يتصرف بها الملك كما تشاء مصلحته
ويشاه المقربون اليه بل هو الشعب او مفوضوه ونوابه الذين يحق لهم ان يسنوا
القوانين ويمينوا الضرائب ويرتبوا النظامات ولذلك بعد تطورات عديدة قرر
الشعب الافرنسي ان الحكومة الجمهورية النيابية هي خير اسلوب للاحتفاظ
بهذا المبدأ الهام

ثم ان الثورة الافرنسية برهنت للعالم المتعدين ان لا فرق بين الغني والفقير
ولا بين الصعلوك والامير . او بين الشريف والوضيع — امام العدل والحق .
فالناس جميعهم معاً كان مولد هم . ومهما كانت حرقهم هم امام الحق والقانون سواء



التدمير سهل والبناء صعب . والافرنسيون بثورتهم الدموية التي اضرموا
نيرانها سنة ١٧٨٩ فوضوا اركان البناء السياسي القديم القائم على استبداد الملوك
بالرعية المجمع يحصون بالماضيل صحتوا على اتقاضه بناء سياسياً جديداً اساسه

الراسخ العدل والحرية ودعائه « من الشعب للشعب في الشعب » وخلق التاريخ أسماء دانتون ولافايات وميرابو . فيما أحلى التدمير يتبعه البناء المتين

الثورة الاجتماعية

إذا رأيت رجالاً يطلبون إصلاحاً يؤيدهم في سبيل بعض المفكرين فقل هنالك خلل يجب تلافيه وفساد لا بد من تداركه

إذا ما معنى هذا الصراخ الشامل الذي تردد نغماته في اندية العالم السياسية ؟ ما هو اليبعث الى اعتصامات العمال العديدة في انكلترا وإيطاليا وغيرها ؟ ما هو السبب الدافع للحركة البولشفية وما جرته حتى الآن من الويلات على البشرية ؟

لا مشاحة ان هنالك موطن ضعف في النظام الاجتماعي فإن هو لعدا جمع علماء الاقتصاد ان موضع النقص في النظام الاجتماعي الاقتصادي الحالي هو مسألة تقسيم الثروة وعلاقة العمال بالتمويلين الذين تجمع الثروات الطائلة في أيديهم فيصبحون قادرين ان يمتكروا بالعمال كيف شاءوا وشاءت مصالحهم ومطامعهم الذاتية

فالأمم الذي يعمل سحابة نهاره يئزم لا يعرف الملل وهمة لا يمتريها الكليل بعيداً عن زوجته واولاده محروماً بعض لذات العيش وملاهي الحياة يحق له ان يتان جزءاً من الارباح الطائلة التي يجنيها المثري الكبير وهو جالس الى منضدته لا يجرآ آلة في المصمل

على هذا المذهب اعتراضات حجة ولكنها كلها مبنية على مبدأ المصلحة الذاتية الآ انة اذا نظرنا الى المسألة من وجهة الانسانية نجد انه يحق للعامل المستأجر ان يقامم المتمول المستأجر اراحة على مبدأ نسي والآ وصلت هذه العبودية المالية الى درجة يصعب معها الصبر وطول الاناة— كما حدث في العبودية الفكرية والعبودية السياسية — فتنفجر في أنحاء العالم ثورات تشبه الثورة البولشفية في شموها وتلتجها

وما هذه الاعتصامات والحركات الثورية الآ اصوات احتجاج على هذه العبودية الخرساء المناقذة الحس فلا تشمر . وانحالية من المواطنين فلا نحن وهي

حالة يأبأها موقف العامل الانتعادي فيتمرد كما تمرد المستبدون من قبله حينما اعتقلت افكارهم الحرة وقيدت عواطفهم الشريفة وتلافي هذا الشر القادح طريقتان

الاولى وهي الطريقة التشريعية السليمة المبنية على مبدأ النشوء التدريجي وهي اسلم طائفة وامن للحصول على الاصلاح المنشود مع المحافظة على السلام حقناً للدماء

وهي الخطة التي يقبها لويد جورج في انكلترا وميلران في فرنسا وحيولي في ايطاليا ومارك في تشكوسلواكيا للوصول الى اتفاق رضي الثمريتين - العمال والتسولين - وقد نجح بعضهم على ما يقال نجاحاً باهراً

والطريقة الثانية هي الطريقة الثورية المجسدة في الحركة البولشفية في روسيا وزعمائها لينين وتشيتشرين وتروتسكي

كل اصلاح اقتصادي في القرن العشرين يجب ان يؤدي الى اكثر الانتاج في البلاد التي يحصل فيها

فالطريقة الاولى لحل هذه المعضلة الاجتماعية تؤدي الى الاصلاح المنشود لان العمال الذين يحصلون حقوقهم بواسطة التشريع القانوني يصبحون ولهم الثقة التامة بحكومة البلاد ويمتقدون انها موجودة لتنصفهم فيكون ذلك عاملاً قوياً يدفعهم للذاب المتواصل والعمل بمجد واجتهاد فيكثر الانتاج وترتقي تلك الامة اقتصادياً وتجارياً ويرتفع مستوى عيشة سكانها

اما الطريقة الثانية اي الحركة البولشفية فلم تصل في طورها الحالي الى الغاية التي يرمي اليها زعماء تلك الفلسفة الاقتصادية المتطرفة ويدلنا على ذلك بعض عبارات من خطاب القاه تروتسكي في احدى المدن الكبيرة وهذه ترجمة خلاصتها

عربية عن مجلة اميركية (١) قال

« نعم تغلبنا على كورلشاك عدونا السياسي الاقوى ولكن هنالك عدواً اعظم واقوى من كل اعدائنا السياسيين . ألا وهو نظامنا الاقتصادي الخرب . ولكي نصلح ذلك الخراب يجب ان ندأب دأباً لم يره التاريخ في احد قبلنا - ستون في

المثمة من قاطراتنا لا تصلح للعمل وإذا بقيت تخرب على هذه النسبة . ففي القريب
العاجل تلتف اسباب المواصلات كلها فيسقط نظامنا السياسي الذي يشمل كل روسيا
« لا بد من اصلاح هذه القاطرات — والمال الذي يصلحونها يحتاجون
الى الأكل لتغذية اجسامهم والوقود لتدفئة وإدارة الآلات

« وللتغلب على هذه الصعوبات نحتاج الى العمل العمل العمل الى النهاية »

« على انه قد يأتي يوم نتقل فيه من طور التدمير الى طور البناء المتين فاذا
فعلنا ذلك نكون قد نجحنا والأهم كانت اعمالنا كلها فشلاً وانخفاقاً »

وعلى كل — فالاصلاح بواسطة التشريع المبني على الانتخاب والتصويت
اسلم طاقبةً واهدى الى الغاية الاقتصادية المنشودة اي توية الخلاف بين
العامل والتمويل

هذه هي الثورة الاجتماعية التي تشغل افكار الياسين اليوم ابنت ما يتمنى
بمبادئها وسيرها باختصار اما ما يكون من امرها فالترشح كتليل بايفناحه



والآن نرى ملامح الثورة الاجتماعية فلنقف على الحياض انرى ما يكون من
امرنا ولكن قبل ان نحكي الأعمار الشبية النافمة التي نقتطفها من اشجار
المدنية الغربية يتحتم علينا ان نحدث ثورة في حياتنا الهذبية حتى تلامنا الافكار
التي تقبسها والمبادئ التي نستنير بها لان نظامنا الهذبي مزقنا خزائنا
وقرقنا طرائق

فالثورة الهذبية في سوريا يجب ان تتخذ توحيد طرق التعليم قائمها الاولى
وجعل وطنية اساليب التهذيب والمهدف الاسمي الذي ترمي اليه

اذ ذلك تشرق علينا شمس الحياة فتتمسنا بنورها وحرارتها فترى مصدر حياتنا
منبعثاً لا من باريس ولندن وواشنطن ونيويورك بل من كنائس القدس وجوامع
الشام وسهول حوران وميناء بيروت وبساتين الساحل وجبال لبنان

فؤاد صروف ب . ع

سوق الغرب ببلنات